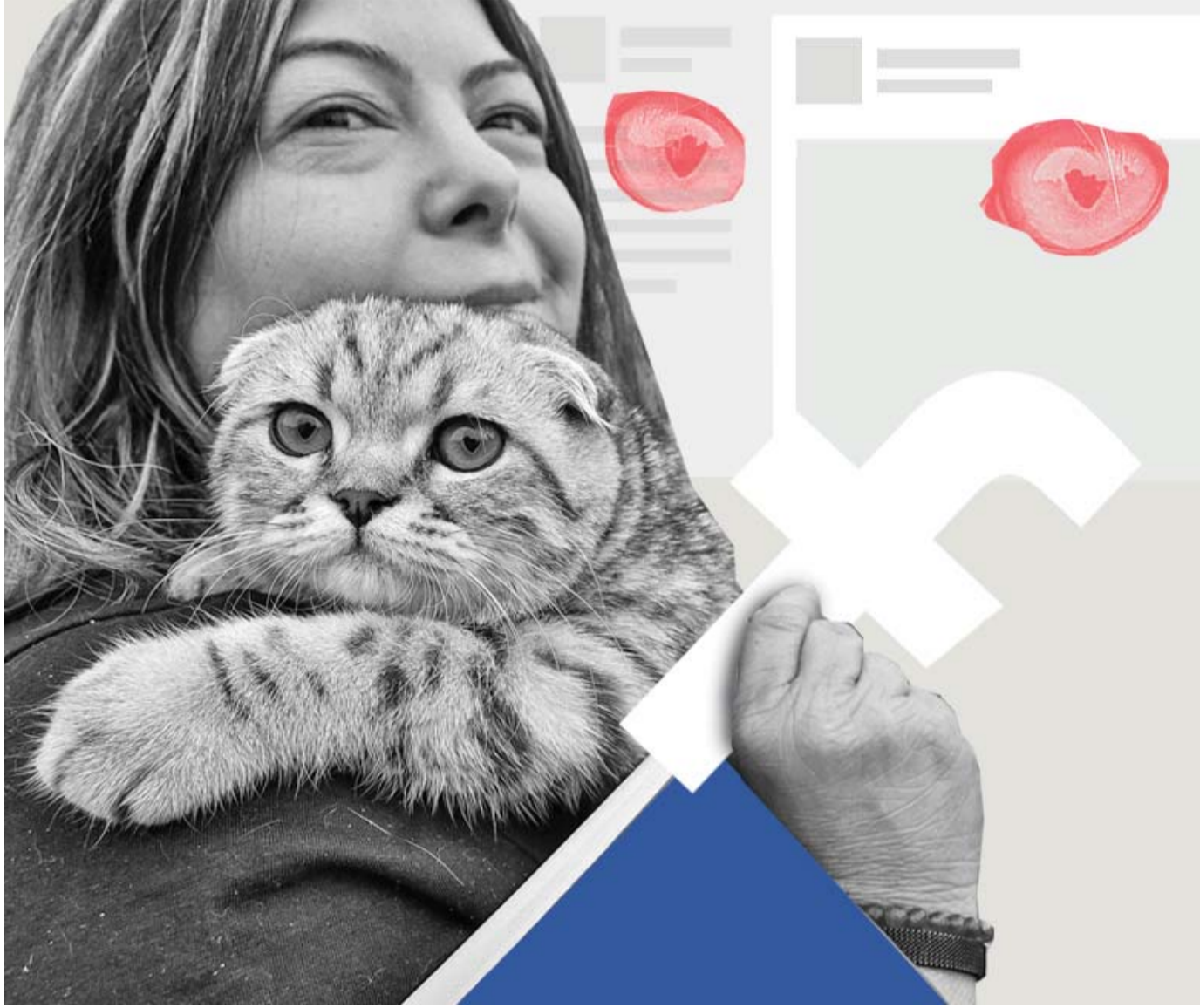


## لا مرشد أعلى في صفحات فيسبوك

## الشبكات الاجتماعية مشروع مستمر للتمرد على مركزية القيادات



والترشيحات من القواعد إلى القمة والانتخابات.

في كل هذا تتم المحافظة على التراتيبات. التراتيبات القبلية صارمة عادة رغم أنها لا تنظم بقوانين مكتوبة. لا أحد يكسر "نهوة" الشيخ. شيوخ القبائل قد يجلسون في مجالس مفتوحة توحى بالديمقراطية ويكونون خريجي جامعات محترمة ويقبلون برامج التلفزيون بين الفضائيات ويتراسلون بواتساب على الهاتف المحمول. لكنهم يمارسون ما كان يمارسه أبائهم وأجدادهم من سلطة معنوية على القبيلة لا ترضى بأن يتم تحديها. في المؤسسات الدينية والدول الناتجة عنها، لا أحد يتردد في استخدام خطاب التكفير عند بروز المعارضة أو حتى محاولات الإصلاح. الدين مؤسسة ثورية، ولكن في مراحلها الأولى فقط. في عالم الدين، هناك ثورة واحدة حدثت منذ زمن وعلى الأمور أن تستقر بعدها، استقراراً نهائياً لا جدل فيه ولا فصال. أمانة الدين وضعت بين أيدي رجال الدين أو رجال السلطة المسلحة بشرعية الدين.

الحزبيون يقصون رفاق الأمل بكل قسوة. الأحزاب تفرز قيادات عندما تكون في مرحلة السرية أو أول مراحل الاستلام السلطة. بعدها يكون الصراع والترقب والمناقشة هي الأساس. في الأحزاب الديمقراطية الغربية تكون العملية منظمة وإن كانت لا تخلو من خيانات وتكتلات ودموع. في مجتمعات تختلط فيها السياسة بالقبلية، أو بالمبالغة بتصديق الدافع الأيديولوجي، قد يكون الإجراء للحفاظ على السيطرة هو العنف. رفاق يعدمون رفاقهم أو يسجنونهم أو ينفونهم.

الشبكات الاجتماعية غير، فهذه ليست مشروع تمرد على السلطة ومركزية القيادات والتراتيبات، بل هي أكثر من ذلك. قد تفرز شخصيات لافتة. قد تملك قداسة غير مباشرة وتوجه الرأي. بعض هذه الصفحات بلا وجه معرّف واضح. هذا طبيعي. لكنها بقوتها وشعبيتها لديها قدرة استثنائية كاملة على خلق عناصر التمرد على هذه الشخصيات منذ أيامها الأولى. صفح فيسبوك لمنطق أو سياسي أو ناشط هي سجل لأفكاره وتناقضاته وردود الآخرين عليه

هيثم الزبيدي  
كاتب عراقي

لعل أجمل ما في الشبكات الاجتماعية أنها تعكس المنطق الاجتماعي الذي يفرز قيادات وزعامات. القاديون حالة طبيعية تعودنا عليها. البيت الأكثر حضوراً في العشيرة يفرز القيادة، في البداية بالمبادرة، ولاحقاً بالأحقية والأقدمية. تتألف العشائر والأفخاذ مع بعضها البعض ليبرز التجمع القبلي. في القبيلة يتقدم الأفضل أو المفوّه أكثر، من بين البيوتات الأكثر حضوراً، ليصبح شيخاً. تتحو بعض القبائل لكي تتألف وتتقارب وتشكل الدول. الدول تحتاج إلى أمراء وملوك، ومؤخراً إلى رؤساء.

لا يوجد مرشد أعلى في صفحات فيسبوك، ولا زعيم تقف الدنيا عنده بكل وقار وإجلال

الاديان تنطلق من النبي القائد المؤسس. كاريزما القائد، بقوتها وصرامتها أو ضعفها وتواضعها، تشكل هيئة الدين وصورتها. لكنه بشر، فتبدأ عمليات الفرز فيما بعد رحيله. بعض عمليات الفرز بسيطة، وأخرى تكون على شكل صراعات بل وحروب أهلية. لكن الأمر يؤول إلى تشكيلة سياسية تمثل الدين، سواء اسمها مجمع كاريزمات أو مجلس شورى أو الدولة الأموية أو الدولة العباسية.

الأحزاب قبائل سياسية. الأفراد يتجمعون لصلوة الفكر وليس براية الدم، أو على الأقل هكذا يبدو الأمر في بداياته. العصبية الحزبية هي وجه من أوجه العيب القبلي بفارق تعريف القريب، ابن العم أم الرفيق الحزبي. والأحزاب تحتاج زعماء وأمناء عامين ومرشدين ومكاتب سياسية ولجاناً مركزية. في مرحلة نكاح الأحزاب، في بداياتها عادة، يكون الانتقال نكاحاً. بعد هذه المرحلة تبدأ الترهلات ويتم التصعيد بالأقدمية حتى وإن كانت الشكليات هي المؤتمر العام

## الشبكات الاجتماعية قد تفرز شخصيات لافتة (غرافيك «العرب»)

من صعوبة تفسير الظاهرة والتعامل معها.

لا يوجد مرشد أعلى في صفحات فيسبوك، ولا زعيم تقف الدنيا عنده بكل وقار وإجلال، ولا رئيس للمكتب السياسي لحزب المتجمعين من أجل السعادة أو الغضب أو حقوق النحل. الكل سواسية كأسنان المشط.

أو الساخرة، ربما قبل وصول رسائله

هذا ربما سبب الحيرة التي يواجهها العالم الآن مع حركات الاحتجاج والتمرد. فلا مركزية الحركات شيء استثنائي، ولا تعرف مع من يمكن الحديث للحد منها أو مفاوضتها. بل إنها قد تتجمع على هدف وتختلف على أهداف مما يزيد

وسيطاتهم ونرجح كفة. ولكن الفرق هو أن جمهرة المثقفين أو السياسيين الجيدين غير محصورة بعدد محدود أو مقطوع مرتبط بحزب أو قبيلة أو طائفة أو دين. لو وضع أحدهم مسمى لنفسه على أنه الأمين العام لتجمع الناشطين المدافعين عن القضية الفلانية، سرعان ما سيتلقى سيلاً من الردود الناقدة

وتشخيصهم لعيوبه مثل حسناته. هي السجل لردود فعله أيضاً على الآخرين وعلى الأحداث بما لا يتيح له أن يختبئ خلف التصنع والترفع واللغة الجميلة. هذا لا يعني أن الجميع يسقط أو ينهار أو يفرض نفسه. كثيرون يحافظون على احترامهم وجديتهم ونسبتهم الإجراء للحفاظ على السيطرة هو العنف. رفاق يعدمون رفاقهم أو يسجنونهم أو ينفونهم.

## مجتمع المراقبة أو الرق الإرادي الجديد

الذي ذهب إليه بنظام فوكو، تلك التي تقوم على فضاعات حبس مغلقة، فقد كتب يقول: «إن مجتمعات المراقبة بصد الحلول محل المجتمعات التاديبية. وعزاً ذلك التحول إلى التكنولوجيا الجديدة، تكنولوجيا الحواسيب والسيرنطيقا، التي باتت تسمح للمجتمعات الحديثة بالعمل وفق مراقبة مستمرة واتصال فوري»، فكانت النتيجة أن عوضت المؤسسة المصنع، مثلما عوض التكوين المستمر التربوي، والمراقبة المستمرة الامتحان، فبعد أن كانت المجتمعات التاديبية محكومة بكلمات نظام، تحدد الفرد بسلوك ورقم، صارت مجتمعات المراقبة تمنحه «كلمات سر».

هذا النوع من المراقبة نجده اليوم مع تطور سوق الوسائط الصوتية التي احتلت الصالونات والمطابخ وغرف النوم، وكذلك الفنادق والمدارس والمستشفيات

ودولوز استيق ما نعيشه اليوم حين لاحظ أن الذكاء الاصطناعي لا يتعامل مع الفئات الاجتماعية أو مضائق الأفراد، بل مع أثار سلوكية مخزنة في بنوك معلومات، وكتب يقول: «إن الفرد صار متعدداً، والجماهير أصبحت عينات، والمعطيات أسواقاً أو بنوكاً». كما لاحظ أن المقاومة نفسها اتخذت أوجها أخرى، فقد نابت القرصنة عن الإضراب، وصار بإمكان الفرد أن يغير شقته، وشارعه، وحيه بفضل بطاقة إلكترونية تستطيع أيضاً رفع كل الحاجز، لأن المهم ليس الحاجز، بل الحاسوب.

كوكالة الأمن القومي الأمريكية NSA، أو التوقعات السلوكية التي تقترحها الـ «غافام» (الأحرف الأولى لغوغل، أبل، فيسبوك، أمازون، ميكروسوفت).

أما النموذج الثاني، فهو الذي تخيله جورج أورويل في روايته «1984»، ويشرح نوعاً من المراقبة تتصل بسلطة مركزية شمولية، أداؤها «شاشة» مثبتة في كل بيت هي عين الحزب وزعيمه الأخ الأكبر. في هذا المثال، لا تلغي المراقبة الحياة الخاصة فقط، بل تسعى إلى إخضاع الفرد إخضاعاً راديكالياً، بالإنفاق حتى إلى أفكاره، فالشاشة التي تتلقى الأخبار وتنبأها تهدف إلى التقاط كل السلوكيات والتعابير الناشئة، لمنع «جريمة التفكير». هنا أيضاً لا يعرف الفرد ما إذا كان مراقباً في هذه اللحظة أو تلك، ولا متى تدخل شرطة الفكر على الخط، ومن

تدخل شرطة الفكر على الخط، ومن ساد الظن بأن العالم يشهد ما توقعه جورج أورويل في روايته الشهيرة «1984» من إخضاع الناس لمراقبة الأخ الأكبر، ثم جيل دولوز كوجه حديث للتعريف الذي يستشعر لحظات التفرغ، ويحاول رصد الاحتمالات الخطرة أو الإيجابية لما يلوح بريقه في الأفق، وكان حذر هو أيضاً في كتاب «حاشية حول مجتمعات المراقبة» مما مخاطر الثورة الجديدة. ولكن ما نشهده اليوم فاق تلك المحاذير، لأن التكنولوجيا، التي كانت تكتفي بمراقبتنا ونحن نسعى داخل هذا العالم، صارت تهيب لنا عالماً حسب ميولنا ورغباتنا.

كبابوس عصر رأسمالية المراقبة (غرافيك «الجديد»)

الصحف والاقتراع وحياة البرلمانات كوسائل مراقبة مشتركة، وينظر للحد من الحرية عن طريق حث كل فرد، باعتباره منحرفاً محتملاً، على تقدير مزايأ امتثاله للقوانين. وكان فوكو قد لاحظ في كتابه «المراقبة والمعاقبة»، أن «بنظام وضع مبدأ يقوم على ضرورة أن تكون السلطة مرئية وغير قابلة للتحقق منها. مرئية: أن تكون عين السجين مشدودتين بلا انقطاع إلى الطيف العالي للبرج المركزي الذي يتجسس عليه منه. وغير قابلة للتحقق: ألا يعلم السجين ما إذا كان في تلك اللحظة منظوراً إليه، ولكن ينبغي أن يكون واثقاً من أنه دائماً كذلك». هذا النوع من السلطة، الذي يخضع الأفراد من خلال تأكيد رؤية دائمة لسلوكهم، عاد إلى الظهور في هذه المرحلة عبر المراقبة الشاملة للاتصالات من طرف وكالات الأمن



كبابوس عصر رأسمالية المراقبة (غرافيك «الجديد»)

أبو بكر العبادي  
كاتب تونسي

لقد اتخذت مراقبة المجتمع على مر الأزمان خصائص نماذج ثلاثة، كما بين الفيلسوف الفرنسي مارتين لوكرو، تم مزجها ببعضها بعضاً، مع الحرص على تخليصها بدهاء من بعدها الاستبدادي، أولها المشتغل الذي ابتكره الفيلسوف الإنكليزي جيريمي بنثام، والثاني الناشئة الشمولية لصلاح الأكبر التي تصورها جورج أورويل، والثالث المراقبة في العصر الإلكتروني كما وصفها دولوز. فاما الأول، أي المشتغل، وهو بناء مصنع بشكل يجعل المراقب يرى دون أن يُرى، وينسب إلى جيريمي بنثام (1748-1832) الذي تصور مراقبة عقلانية تسمح بالجمع بين الأمن الجماعي وموافقة الأفراد، وكان بنثام قد عرض عام 1791 على المجلس الوطني الفرنسي الذي تشكل عقب الثورة مذكراً حول المبدأ الجديد لبناء دور مراقبة، أي مشروع سجن مثالي تكون فيه الزنزانات الفردية مبنية في شكل حلقة يتوسطها برج مركزي، يمكن للحارس أن يرى من داخله المساجين دون أن يبصروه. وهو تجهيز يخضع لمبدأ الشفافية أو المراقبة بشكل يصيب الخيال أكثر مما يصيب الحواس، ويضع مشات الرجال رهينة لشخص واحد، ليكتسب نوعاً من